عليه لكنه يرفضه بهزّات غبيّة، متكرّرة من أذنيه ورأسه والدموع تترقرق في عينيه.

*

نقلوه بعد ذلك إلى دائرة جديدة وقد اكتشف بعضَ أسرارها منذ أول لحظة. عرف أنها تحوي عدداً كبيراً من العميان. وخلال أيام عمله هناك لم يصادف مُبْصراً واحداً. كانوا يديرون آلات غريبة الشكل بالضغط على أزرار بارزة حمراء وخضراء، ويضعون الموادّ الأولية وهي عبارة عن مساحيق سوداء ورمادية حريفة الرائحة، والمكائن تدور مؤدّيةً دورَها في التصنيع. وقد ألغتْ إدارةُ الشركة شبكةَ الإضاءة الداخلية، للمحافظة على الطاقة وعدم هدرها في ما لا ينفع، وقد غَرقتْ ردهاتُ الإنتاج وممرّاتها ودهاليزها في ظلام معتمٍ ورطوبةٍ منذ عشرات السنين، كأنما قد أقيمت في سراديب تحت الأرض. وكلّ الذين صادفهم لا يهمّهم أمر الاضاءة؛ فهم يرون طريقهم جيداً وقد حفظوه عن ظهر قلب. والذي أدهشه في عمله الجديد أنّ دورات المياه بلا أبواب، وقد صُمِّمَتْ كجزء من فضاءِ قاعةٍ تنتشر فيها صنابيرُ ماءٍ تقطر بشكل مستمر. ولن يتلصّص أحدٌ على أحد في خلوته، ما دام الجميع بعيون لا ترى شيئاً. وحين يدقّ عاملُ الاستعلامات الأصلعُ جرسَ انتهاء مدة العمل، ليخرج العميان زرافاتٍ زرافاتٍ، يُمسك أحدُهم بكتف الآخر ويقودهم أكبرُهم سناً وبيده عصاه التي يمسح بها الأرضَ أمامهم، كما يفعل الرجلُ الذي يخوض في مياه آسنةٍ وهو يُبْعد عن طريقه الطحالبَ والأشنات والعفنَ.

حين علموا بعد مدة أنّ وسطهم يضمُّ مُبْصراً أخذتْ تجتاحهم الريبةُ والنوباتُ العصبيّة المتكرّرة من كل حركة يسمعونها أثناء العمل، وبدأ الانكماش على وجوههم وتصرفاتهم، وأخذوا يلفّون أكياسهم التي يضعونها تحت آباطهم عند الخروج بأيدٍ مرتجفة؛ فقد كانت تحوي سرقاتهم الصغيرة من المواد الأولية وأجزاء الآلات العتيقة التي يبيعونها في أسواق الحديد المستعمل وبعض المواد نصف المصنّعة. كانت سرقاتُهُم الصغيرة من الشركة توفّر لهم دخلاً ثابتاً نهايةَ كل شهر، أغفلتْه قوائمُ الحسابات التي تُعَدّ نهايةَ كل شهر من قِبل موظفةٍ ضعيفة البصر تضع على عينيها نظاراتٍ طبّيةً ذاتَ زجاج سميك وتحاول قدر إمكانها، بمناسبة وبغيرها، رفعَ النظّارة الطبّية عن عينيها والنظرَ إلى مرآة صغيرة تخفيها بشكل دائم في حقيبتها، لترى مدى جمال عينيها وسط هذا الحشد من العيون غير المبصرة.

أحسّ الرجل بعد مدة أنّ زملاء العمل يحيكون الدسائس حوله للإيقاع به، وقبل أن ينجحوا في مساعيهم عَرفَ حقيقة مدهشةً عنهم ووظّفها بشكل مستعجل... فقد استطاع ان يكتشف، عن طريق المصادفة وحدها، أنهم يتظاهرون بالعمى.. وتدرّب في البيت على طرائق العميان في السير والأكل والتحسّس في الظلام، ووضع على عينيه نظارةً سوداء، وحمل كيساً تحت أبطه كالذي يحملون، وتوقّف عن طرح الأسئلة، وأخذ يضع يده على كتفِ آخرٍ واحدٍ من الرهط الخارج كل يومٍ من بناية الدائرة في سلسلة بشرية طويلة.

ولأول مرة في حياته الوظيفية عند الدولة شعر بسعادة الاطمئنان والأمن من النقل إلى مكان آخر، وفكر أنها قد تكون نهاية تجواله..

سبها (ليبيا)

(الكاتب عراقي)

ما الذي جرى على محور اللقيس اليوم، الاثنين، ١٥/آذار/١٩٨٢؟

فجأة تمزق الهدوءُ بدويّ انفجارٍ هزَّ البيت، تبعه رشقُ الرصاص من كل الجهات. وقفز الجميع نحو غرفة السفرة، بينما اندفع «رامي» نحو المطبخ ليستطلع الوضع من نافذته.. وصرختْ محذّرا:

ـ الزموا أماكنكم. رامي! لا يغادرنَّ أحدٌ غرفةَ السفرة. (وتسمروا واقفين مرتعبين. كنت لا أزال في مقعدي والصحيفةُ بين يديّ. طويتها ووضعتها جانباً.) تعالوا، اقعدوا ولا تتحركوا.

وصرختْ أمُّهم:

ـ كيف؟ تعال أنتَ إلى هنا. قُمْ من تحت النافذة، الزجاج.

ـ لا تخافوا. المعركة على محور الشارع الرئيسي، من متراس إلى متراس، ونحن هنا على الزقاق العمودي على الشارع، وإلى الداخل، خلفَ بناءٍ إلى المفرق.

ـ والرصاص الطائش؟ والقذائف؟ وحطام الزجاج؟ قُمْ من عندك.

ـ الرصاص الطائش نتفاداه ببقائنا ضمن هذه الجدران. والقذائف، اذا ما صدف وأصابت البيت، لا تصل إلى حيث

نحن. غرفة السفرة والصالون آمن مكانٍ في البيت.

وعلا صراخ أو هتاف تحت البيت، عقبه انفجارٌ ارتجَّ له رأسي.

ـ قلتُ لا تخافوا.. وها إني أقوم من تحت النافذة. اقعدوا حيث أنتم.

وضجّ الدرجُ بأقدام الجيران المتدحرجين من الطبقات العليا، واختلط الصياحُ بالضجيج، وتوالى دفعُ الباب بأيدي النازلين وربما بأقدامهم.. «انزلوا إلى تحت.. أسرعوا». وفتحْت «منى» البابَ، وتدفق الجيرانُ إلى الداخل تنطق أفواههم وعيونهم بالخوف والهلع: «قتلوا فياض، قتلوا فياض.. قوموا، قوموا».

وأَخرس الجميعَ انفجارٌ آخرُ، عَقبه تحطُّمُ الزجاج على أرض الزقاق.. ثم، بصوت واحد، صرخ الجميع: «إلى تحت، إلى تحت..». وتدافعنا كلُّنا على الدرج. خُيّل إلينا أن آمن مكان هو الطبقة نصف الأرضية للجهة الجنوبية من المبنى، بعيداً عن مسَاقط حطام الزجاج أو الردم، وليس بيننا وبين المتقاتلين سوى أمتارٍ قليلة لجهة الجانب الشرقي من البناية، وجلبةُ تحركهم وتناديهم سيطرتْ على رؤوسنا. وتجمّعنا عند أسفل الدرج تحت مستوى البوابة الحديدية، واللغطُ سيد الموقف: «أين أحمد؟ أين جهاد؟ منال، انتبهي لخالد. إلهام لم تعدْ بعد، الله يجيبك يا إلهام؛ الأولاد لا يزالون في الشغل، خربوا بيوتنا، الله يخرب بيوتهم؛ ملعون أبوهم وأبو هذه الحرب، ما بقى تعرف تنتهي؛ يا ذُلّ ذُلِّكِ يا صابرين». وقلت لهم أو لبعضهم:

ـ يا جماعة لا تخافوا، نحن هنا في مأمن. القتال الدائر هناك بعيد عنا. وهو في الاتجاه المغاير لمنور البناية حيث نحن الآن. والمتقاتلون هناك يتراشقون بالرصاص والقذائف من الشرق إلى الغرب وبالعكس، وبيننا وبينهم بنايةُ الروضة ثم بنايتُنا هذه. لا تخافوا. وصرخت امرأة:

ـ ولكنهم هنا وراء بوابة المدخل، بين السيارات وتحت بيت أبو بلال.

ـ الذين هنا متربصون تحسُّباً، ولن يشاركوا في القتال إلا في حال اقتحام جماعةِ المتراس الشرقي المحلَّةَ ووصولهم إلى زقاقنا؛ وهذا مستحيل. منذ سنوات وكل جماعة وراء الساتر الذي يحميها، وهذه ليست أولى معاركهم. كثيراً ما تعاملوا بما لديهم من أسلحة، وكانت الأمور تنتهي على خير. هدِّئوا أعصابكم ولا تجزعوا..

إلا أنّ انفجاراً هائلاً خلناه فوق رؤوسنا، وعقبه تحطُّمُ زجاجٍ وصراخٌ وجلبةٌ، جرَّدَنا من البقية الباقية من هدوء أعْصَابِنا. وتدافع الجميعُ باتجاه الداخل، و انهارت ابنة الجيران «راغدة»، فانطرحتْ على الأرض وانحسر فستانُها الأزرق عن ساقيها المتلاعبتين كالبرق في الهواء، والتهمتها أعينُ الصبيان والشيوخ.. ولم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منها: جمدنا جميعاً، والمسكينة تكاد تمزِّق ثيابها وتُظْهر عُريها. ونضحت بعضُ العيون بالفضول والاستنكار.. وفاجأنا أبو إلهام عندما تقدم منها وصفعها على وجهها وصرخ:

ـ اهدئي. كفى! قومي عن الأرض.

وولولت أمُّها:

ـ يا ولدي..

وتعالى الصياحُ والصراخ والتبكيت:

ـ يا ويلك من الله،

ـ حرام عليك يا رجل،

ـ أما عندك قلب؟ نحسبك عدواً.

ـ استحوا، أديروا وجوهكم عنها. قومي يا ابنتي، قومي يا حبيبتي، لُطْفَكَ يا رب.

ونهضت الفتاة بجذعها، وأمسكتْ بطرف فستانها وأنزلته حتى كعبيها، وسمَّرتْ عينيها في وجه الرجل ورأسها يتخلّع يميناً وشمالاً، ولم ترمرم بحرف. وصرخ الرجل:

ـ قومي عن الأرض؛ بسرعة. خذوها من هنا، هيا.

واقتحم المدخلَ أخوها «نظير» صارخاً:

ـ قتلوا فيّاض الفحّام.

وصرخت البنت كأنما تستنجد بأخيها، ونظرتْ إليه بعينين من زجاج، ورأسها لا يزال يهتزّ بعنف. وصرخ أبو إلهام:

ـ احملوها إلى الداخل، قلت لكم.

واحتضنها نظير، وطلع بها الدرج وهي تتشبث به وتدفن رأسها في صدره. ونقَّل أبو إلهام نظره على الجميع يتحدى أيَّ تعليق أو احتجاج. وتمتمتْ أم برهان بكلام ما:

ـ تستأهل.. وهل الوقتُ وقتُ استعراض؟

ـ اخرسي يا حرمة. لعن الله قلة الحياء.

والتقت نظراتنا ـ أم برهان وأنا ـ وومضت ابتسامةُ تفاهم بيننا، ودوَّرت الخبيثة عينيها وهزتْ رأسَها كأنما تؤكد قولها. وخرج «نظير» إلينا يحمل الخبر بفضول العارف وقال إنهم قتلوا فيّاض الفحّام. وتناثرت الاستفهامات من كل

صوب: ولماذا فياض؟ أين كان؟ و.. من قتله؟ وضاعت الأسئلةُ في خضم الضجيج، وخرج نظير إلى بوابة المدخل يستطلع جديدَ المعركة. وأسندتُ ظهري إلى الجدار، تحت علب البريد، وفي رأسي خارطة الساحة في الخارج، على بعد خطوات من بنايتنا.

*

منذ خمس سنوات والإخوان المتقاتلون يرابطون كلٌّ جماعة وراء الستار الذي يحميها على جادة الاستقلال. جماعة منهم أمام «بناية البلحة» على بعد مئة متر إلى الشرق من هنا، والجماعة الأخرى تحت «بناية الشعّار» وهم على بعد مئة متر إلى الغرب من هنا. وبينهما سبعُ بنايات أبرزها «بناية اللقيس». وقد عُرِف هذا المحور بـ «محور الاستقلال»، إلاّ أنّ الحي سرعان ما غيَّر هذا الاسمَ إلى «محور اللقيس» بسببِ ما لهذه البناية من الشهرة، أو لأنها صارت مع الوقت الهدفَ المشتركَ للمتقاتلين، لا لأهمية موقعها بل لأهمية موجوداتها، وبالتحديد موجودات بيت اللقيس نفسه الذي كان يشغل الطبقة الأولى من البناية. فعبدالله اللقيس مغترب، كان في افريقيا، ونوافذُ شقته العريضة وأنوارُ ثرياتها المضيئة تُظهر مدى الغنى الذي تتمتع به:

تُحفٌ عاجيّةٌ تتصدر الصالون، ودرسوار غرفة السفرة، وكريستال يبرق تجاوباً مع أخفّ نسمة هواء تدخل البيت؛ وكل ذلك مما يشي بما هو خافٍ أو مخفيّ؛ والمخفيُّ كما يقولون أعظم. وقد سَرَتْ في الحي إشاعاتٌ، وكلها تتصاوب نحو حقيقة مُسلَّم بها، وهي تصميمُ كلِّ جماعةٍ من المتقاتلين على الوصول أولاً إلى بيت اللقيس. ولم تخرج أيٌّ من المعارك التي تكررتْ على هذا المحور عن كونها محاولةً لاقتحام بيت اللقيس ونَهْبِ ما فيه.

وكنا نحن نشعر بالأمان على الرغم من قربنا من هذا المحور، ذلك أننا في العمق العموديّ عليه. لم يترك أحدٌ بيتَه على الرغم من تواضع موجوداته، خوفاً على تحويشة العمر فيه. وأما اللقيس القادر على الدوران في أربعة أرجاء الدنيا فقد غادر البيت والبلاد، إلا أنه لم يتمكن من حمل لؤلؤة معه، وبقي البيتُ بكل ما فيه من عاج وكريستال وسجاد عجمي. وكان اللقيس طوال وجوده بيننا يتفقد هؤلاء وأولئك بالإكراميات والهدايا من ساعات ومشروبات وتبغ وعطور وغير ذلك، فَضَمَن حماية نفسه وبيته و... جيرانه. إلا أنّ خوفه على روحه وحياة عائلته حدا به أخيراً إلى الهجرة، فترك البيتَ والبلدَ منذ سنتين، وعهد إلى فيّاض الفحّام بحراسة البيت. وفياض الفحّام، أو الحشّاش، هذا، فاتحٌ دكانَهُ على حسابه، لا يهمه من هذه الحرب سوى أهدافه الخاصة، وهي تتلخص في المال يعمر به جَيْبَه ومؤونةَ الكيف لديه من ويسكي و«لاكي سترايك» وحشيشة. وكان اللقيس قد أرضى خاطر الجميع من الجانبين بالإكراميات المناسبة رجاءَ المحافظة على البيت، وقد ضمن الجميع له ذلك.

إلا أنّ الأحوال تغيرتْ، والنوايا تبدلتْ بعد شهرٍ أو شهرين من سفره. وحكمت «مقتضياتُ المعركة» المصيرية أن يكون بيتُ اللقيس في عهدةِ جماعةٍ دون أخرى، حتى أصبح وحدَهُ الهدفَ. تبخرتْ طموحاتُ المتحاربين ومبادئهم، وحروبُهم من أجل السيادة والحرية والمساواة وعروبة لبنان ووحدة المصير، وأصبح تحريرُ بيت اللقيس أخيراً هو الهدف. وقعد المتحاربون وراء أكياس الرمل: عيناً على المتراس الآخر، وعيناً على بيت اللقيس. واحمرت العيونُ من فيّاض الذي كان لا يبالي. والغريب في الأمر أنه كان يتردد على هؤلاء وأولئك يتمعشر معهم أو ينادِمُهم. ويظهر أنه لم يتفقْ مع أيّ من الفريقين على صفقةٍ ما بخصوص بيت اللقيس. وأحياناً كثيرة، وخاصة أيام وقف القتال، كنا نراه مستريحاً على شرفة البيت، وأمامه على طرابيزة فنجانُ الشاي (كان يشرب الويسكي من فنجان الشاي) وعلبةُ سجائر «اللاكي سترايك» وصحن المكسّرات، يشرب ويدخن ويتسلطن ويبصبص بعينيه على شبابيك الجيران إلى أن يطُبَّ جفناه.

كنا نحن سكان الحيين ـ إذا ما اعتبرنا أنّ المتراسين قَسَما الحيَّ الواحد إلى حيَّيْن شرقي وغربي ـ نتواصل ونتزاور عبر الأزقّة الداخلية على موازاة المحور. ويظهر أننا كنا على مدى ما يقارب نصفَ سنةٍ أو أكثر قد نَعِمْنا بأيام هادئة وآمنة، فغفلنا عما يُدبَّر لهذا اليوم الشاذّ. وكانت سهراتُنا لا تخلو من تناول المتقاتلين بالقفش والتنكيت أحيانا. والمضحك أنّ كل جماعة منا كانت تشير إلى المتقاتلين من ناحيتها بكلمة «شبابنا» دون أن يعني ذلك أيَّ معنى انتمائي خارج عن جغرافية الحي. حتى إنّ بعض سهراتنا كانت أحياناً على الشرفات المطلّة على المحور، مادام الاسترخاء يشمل الجوَّ بالأمان والاطمئنان. وقد نخترق السقفَ المسموحَ به بضحكةٍ تنطلق من هنا أو هناك ويصل صداها إلى مجال هذا الساتر أو ذاك. وإذا ما صَدَفَ أنْ نَهَرَنا أحدُ المسلَّحين أو أمَرَنا بالكفّ عما نحن فيه، انكفأنا إلى الداخل بنَفْسٍ راضية وتسليمٍ ودون أي تعليق، على الرغم من الصفات غير المستحبة التي كان

ينعتنا بها من مثل «يا فئران» أو «يا كلاب» وأحياناً «يا أولاد الكذا مذا»... وكان ذلك غيضاً من فيضٍ ما كان يتخاطب به شبابُ المتراسين من وراء أكياس الرمل والبراميل وهياكلِ السيارات التي يحتمون بها. كانوا يتسامرون، حتى لا نقول يتراشقون، بتبادل السباب والتشنيعات والدعوات المبطنة بالتهديد وبما يتجافى والأخلاقَ الحميدة. حتى إنّ حَرْبَهُم أصبحتْ من موضوعات سهراتنا، وعندما دخل فياض على الخط، أو الخطين، ـ ولست ادرى مَنْ مِنّا سمّاه مرةً «كيسينجر»، وكان مشروعُ كيسنجر قد افتضح وبانت خطته ـ تطعمتْ سهراتُنا بنكهةٍ خاصة من التفكه والتنكيت. إلاّ أن رَشَقاً، ولو خفيفاً من النار، من هذه الجهة أو تلك، كان كافياً لحملنا على مغادرة الشرفة واللجوء إلى الداخل، فَيُهرع البعض من فوره إلى بيته، بينما يتظاهر البعضُ الآخر برباطة الجأش أو عدم الاكتراث ويبقى ليكمل السهرة ومواصلة ما انقطع من حديث. ولم يكن مستغرباً في بعض الحالات أن يبيت البعضُ عند جيرانهم، فتغصّ غُرف النوم بالنساء ويبقى الرجالُ في الصالون يتمددون على الكنبات والطراريح خصوصاً إذا ما رُدَّ على رشق النار بمثله من الجهة المقابلة، أو بانفجار ينذر بالويل أو ينزل الخوف بالرُّكَب. وبين قوسين، لا بد هنا من ملاحظة: لم يشهد حيُّنا ـ أو حَيَّانا ـ حادثةَ قتلٍ أو جرحٍ أحدٍ من «شباب المتراسيْن» على محور اللقيس هذا. وهذا موضوعٌ تعوّدنا مع الوقت الا نستغربه. المستغرب كان الا ينتج عن تقاتلهم تحطيمُ زجاجٍ أو خرقُ جدارٍ أو جرحُ أو قتلُ أحدِ الأهلين. وهنا مكمن المأساة.. وهذا الأمر تكرر فقط مرتين، وخسر الحي ـ او الحيان ـ أفضلَ جارين لنا هما: ابراهيم خليل (أبو جورج) في جهتنا، وخليل ابراهيم (أبو محمد) في جهتهم. الأول كان بيته فوق متراس شبابنا في الطبقة السادسة من بناية الشعّار على شمال المحور؛ والثاني كان بيته قبالة بيت الأول، على خطٍ قُطريّ في الطبقة الخامسة من بناية تدمر الملاصقة لبناية البلحة هناك. وقد ضج الحيّ إثرَ الحادث الثاني وعلا الصوتُ من الناحيتين احتجاجاً على المتقاتلين الذين يظهر أنهم كانوا يقوِّصون بالعالي فيتسبَّبون بالضرر وبقتل الأبرياء الذين لا دخل لهم بهذه الحرب. وللحق نشهد أنّ المتحاربين كانوا ذلك اليوم «ديموقراطيين» جدا. فلقد أبدَوْا الكثيرَ من الأسف لما حصل. واشتركوا ـ اتفاقاً ـ على اتهام طابورٍ خامس، مندسٍّ هنا أو هناك وربما هنا وهناك خلف خطوط كلا الفريقين، بالتسبب بالمأساتين: «فنحن إخوةٌ وابناءُ حي واحد ولا يُصَدَّقُ أن يتجنى أيٌّ من الفريقين على سكان الحي الواحد». وفيما عدا هاتين الحادثتين نكاد نقول إنّ محور اللقيس برأسيه الشرقي والغربي نَعِمَ ـ إذا جاز التعبير ـ بالسلام المشوب بالحذر على الرغم من بعض الحوادث الفردية المؤلمة. أما أيام القصف العشوائي فكنا فيها كسائر أهل البلد نتحمل جَحيم القتل والدمار والحرائق وتَلَف موجودات البيت ونحن في المخابئ تزكم أنوفَنا روائحُ البول والبراز.. وكنا لجأنا إلى استعمال أكياس النايلون بعد أن تسبب الشُحُّ بانسداد المراحيض.

*

..... وعاد نظير إلى الداخل.. تنبَّهتُ عندئذ انه قد مر بعض الوقت دون انفجاراتٍ وإطلاقِ رصاص.. وأنّ لغط النسوان قد تحول إلى كلام في مختلف الشؤون البيتية والمعيشية من طبيخ وألبسة وأزياء... وقال نظير إنّ المعركة قد انتهت، وإنّ فياض لم يمت و«قوموا تفرجوا على بناية اللقيس».

وخرج الجميع إلى الزقاق.. وتجمعوا عند زاوية بناية الاستقلال، ووجوهُهُم إلى ناحية بناية اللقيس. وكما توقعتُ، كانت طبقاتُها الستّ مرشومةً بنقش الرصاص الذي لم يوفر زجاجاً فيها، والسماجُ الأسود يكاد يغطي واجهتها الجنوبية، وقلةٌ من الناس ظهروا لنا وهم يتفقدون بيوتهم ويُحْصون أضرارهم. أما بيت اللقيس فقد بدا كتنّينٍ يلفظ روحه. لقد احترق البيتُ بكلّ ما فيه. لا أثاث ولا ثريات، ولا عاج ولا سجاد، والسنةُ النار السوداء الحمراء تكاد تطول الطبقة الأعلى.. واسم «فياض» على كل لسان. كيف نجا العفريت؟ كيف لم يُصَب؟ أين كان؟ من أين هرب، وإلى أين؟ بل كيف قطع المحور إلى ناحيتنا؟ ولماذا حدث كلُّ ما حدث؟ وكيف لم يتفق أولادُ الحرام على اقتسام كل هذا الذي احترق؟ وفياض يروح ويجيء بيننا فرحاً بنجاته متباهياً كأنه كان بطل المعركة و... هنيئاً لك يا راغدة.

الملعون.. اغتنم حالة الاسترخاء في الحي، فرتَّبَ قعدةً على شرفة غرفة النوم قبالة الجيران فوقنا، وجلس على كنبة ومدَّ ساقيه على كرسيّ وراح يتنعم بدفء الشمس ويتسلى بمصمصة الويسكي من فنجان الشاي، ويقرقز المكسّرات من صحنٍ أمامه، ويدخّن سيجارة اللاكي المعمرة بحشيشة الكيف، ويبصبص بعينيه إلى بنت الجيران... كل ذلك ولم يحسب أيّ حساب لمشاعر «سيالكو»، زعيمِ شباب متراس الشعّار الذي طفح كيله فقام إليه وانتهره قائلاً:

ـ قُمْ مِنْ عِنْدِك وْلا بْسين.. واحد بلا أخلاق.. تشرب المحرَّم جهاراً نهاراً ولا تستحي؟ كأنّ الناس بعوض أمامك؟ قمْ انقبرْ من عندك وإلا مزقتُ لحمك بهذه.

وأطلق في الهواء القذيفة التي هزت الحي.. فما كان من الأخ فياض الا أن سحب مسدسه الكولت وأطلق هو الآخر مشط رصاصه في الهواء ايضاً.. وتمزق الهدوء وكان ما كان... وكالعادة.. فقد استمرت المعركة، إلى أن قامت اللجنة الأمنية وأجرت الاتصالات اللازمة وأعلنت وقف القتال فوراً ووجوب التقيد به، بعدما تبين لها أنه كان نتيجة حادث فردي. و.. «لا تواخذونا».

بيروت

هاتف منتصف الليل قهرني: أدركتُ أنّ ثمة خبراً خطيراً سأسمعه.. وهل هناك أخطر من أن يسمع المرءُ خبرَ وفاة أمه؟

لم أنم. ظللتُ أستحضر وجهها الأليف وأنا أعلك حزني. فمنذ سنوات لم أرها، وكان صوتها وحده على الهاتف عزاء اللقاء: «متى أراك يا بني؟» فأردد: «قريباً يا أمي قريباً». ثم أرجوها أن ترضى عني. فتقول عبارتها التي لم تتحقق أبداً: «الله يجعل التراب في يدك ذهباً». فأضاحكها: «ها أنا ممسك بحفنة من التراب. فأسمعيني أدعيتك يا أمي..» وتردّ عليّ بإيمان خاشع وعميق: «سوف يعطيك الله من عنده ما لم يخطر لك في بال».

باكراً، أسرعتُ إلى أول تاكسي أرجوه نقلي إلى شتورة، حيث سينتظرونني هناك فأنتقل معهم إلى دمشق. وقد فعلنا ذلك اختصاراً للوقت.

كان الشاب الذي نقلني في سيارته في مقتبل العمر. أراد أن يتباسط معي في الحديث. تحدّث طويلاً دون أن أفقه شيئاً مما قاله؛ فأنا ذاهب لوداع أمي. أتذكر، لحظة بلحظة، كل ما يتعلّق بها، بوجهها المدوّر المليء صحةً وبصوتها الناعم الأثير إلى قلبي.

لا شكّ أنّ السائق الشابّ أدرك أخيراً أنني منصرف عنه تماما، فسألني: «أستاذ.. ما بك؟ كأنك لا تسمعني».. اعتذرتُ منه، ثم أنبأته بوفاة أمي. صمت لحظة. وخفّف من سرعة السيارة. انتبهتُ أنه يسترق النظر إليّ. ثم قال: «ما أصعب فراق الأم. أنه أشدّ مرارةً من أيّ فراق آخر.. أنا، أيضاً، يا أخي، فقدتُ أمي. كانت واحدة من شهداء مجزرة قانا في الجنوب.. ليس هي فقط، بل أخواتي الثلاث، وأخي الصغير..».

مَنْ يعزّي مَن الآن؟ ارتبكتُ حقاً. فمأساة الرجل أكبر من مأساتي.. وردّدنا معاً: «إنّا لله وإنّا اليه راجعون».. بعد ذلك، ساد صمت، إلاّ هدير السيارة وهي تصعد «ظهر البيدر» متّجهةً نحو سهل البقاع.

وصلنا إلى المكان الذي اتفقنا على اللقاء به. أخرجتُ مبلغاً من المال وقدمّته إلى سائق السيارة. فرفض في البداية أخذه، وكرّر تعزيتي. وبعد إلحاح تناول المبلغ خجلاً وتركني.

جاءت سيارةُ صهري ومعه زوجُ ابنته. فركبتُ إلى جانب غسان فيما الصهر جلس في الخلف. تبادلنا كلمات مبتسرة. سألتُ عن سبب الوفاة: «إنها جلطة في القلب لم تمهلها ثواني».

كان ذلك اليوم يوم جمعة.. وسيشيّع جثمانها بعد الصلاة مباشرةً. وعندما قلت إنني أريد أن أراها قبل الدفن، أسرع غسّان بسيارته مسابقاً الريح.. ولم تمض ساعة من الوقت حتى كنّا في الحي الذي نسكن فيه. استقبلني والدي مفجوعاً وارتمى على صدري باكياً، ثم جلستُ إلى جانبه. كان صمتُ الموت يخيّم على الجميع. همستُ في أذن صهري: «أريد أن أراها». قال: «طبعاً.. انتظرْ قليلاً». كان أبي يجلس في صدر الدار يضرب كفاً بكف، فيما الجميع من الاهل يلتفّون حوله. كنتُ أرتجف، ظننت أنه البرد، فشتاء دمشق الصحراوي قاس دائماً. رحت أتأمل الوجوه التي حولي. لأول مرة أجد هذا الجمع من الأسرة دفعةً واحدة وفي مكان واحد. كانت العيون تنظر نحو أبي مشفقةً أكثر من نظراتها نحوي. ولِمَ لا، فهو الخاسر الأكبر: فبعد أن تزوّج أبناؤه وبناته جميعاً، ظلت أمي وحدها إلى جانبه ترعاه بصمت وكبرياء، وتردّ عنه كل أذى، وتحرص على صحته مع دعائها الدائم: «الله يجعل يومي قبل يومك.. لأنني سأموت بعزّ». أترى الله قد نفّذ رغبتها؟!

بعد لحظات، غمزني أحد أفراد العائلة. خرجت. ثم أشار إليّ أن أصعد إلى الطبقة الثانية من المنزل. صعدتُ الدرج. فوجدتُ اخواتي السبع مصفوفاتٍ بسواد ملابسهنّ يبكين بصمت، بينما كانت أصغرُهُنّ تردد بصوت مسموع: «لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله».

دخلتُ الحمّام حيث كانت أمي مسجّاة. وقد لُفّتْ بكفنها ولم يبق ظاهراً إلا وجهها.. كأنها نائمة. إلا أن وجهها بدا لي مشدوداً كأنّ لحظة الموت رعبتها. اقتربتُ أكثر، ورحتُ أمسّد الوجه البارد بأناملي بطيئاً بطيئاً. استرخى وجهها.. وخيّل إليّ أنها سترفع رأسها نحوي.. قبّلتها من جبينها مراراً.. ثم

---

* - حياة بنت أحمد جليلاتي المعتوق، والدة الكاتب التي رحلت مؤخراً.